

الحضور الأندلسي رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي انموذجاً

أ.م.د. مرتضى كمال حريجه الياسري م. شيماء جاسم خضير
كلية التربية / الجامعة المستنصرية

ملخص بحث:

تمثل شخصية ابن شهيد الأندلسي بأبعادها النفسية والاجتماعية والأدبية ويفعل أسلوبه المتميز الذي يشد الانتباه بل يثير في النفس الدهشة والأعجاب شخصية أدبية متميزة ومن البواعث الذاتية التي دعنتنا الى البحث في هذا الموضوع رغبتنا الملحة . يأتي في مقدمتها خواطر عشق أبنينا لبقايا حلم أسلامي عمر أرضاً غاية في الخصب والعطاء احياً برزج مائها فتية من العرب ورفاقهم البربر ذات يوم هذه الأرض التي تحمل هذا المشهد الرياني الذي لم يألّفوه في غيرها من بقاع المعمورة مستبشرين أن أرضاً بهذه المواصفات يمكن ان تكون واقعاً دائماً علاوة على هذا رغبتنا الملحة في الكشف عن صفحة من صفحات الشخصية الأندلسية التي انجبت نصوصاً شعرية ونثرية في غاية الروعة والتفرد والأبداع ماتزال مجهولة في جوانب مهمة منها لم تتمكن الدراسات السابقة في التنقيب عنها لعلنا نسهم في الكشف عن جمالياتها التي تمثلها شخصية اندلسية طالما اعترف الدارسون والباحثون بتفرد الانساني اولاً وتميز ابداعها النثري والشعري والنقدي كلاً على حدة ثانياً وسيكون من اهتمام هذا البحث بيان جملةً من الظواهر الموضوعية والفنية كما سنحرص على استكشاف مواطنها عند نائنا ابن شهيد الأندلسي .

يتألف البحث من ثلاثة محاور يسبقهم تمهيد عرضنا فيه لمحة تاريخية وادبية عن الحضور الاندلسي في اسبانيا . اما المحور الأول فيشمل دراسة عن رسالة التوابع والزوابع وبيان الشخصيات الاندلسية والمشرقية فيها . وتضمن المحور الثاني المعارضات الشعرية والمحور الثالث المعارضات النثرية ، ثم خاتمة تتضمن ابرز النتائج التي توصل اليها البحث.

Research summary

The figure of Ibn Shahid Al-Andalus is represented by its psychological, social and moral dimensions, and by its distinctive style, which attracts attention but raises astonishing and admired soul in a distinct literary personality. One of the self-motivating factors that called us to research on this subject is our urgent desire. Foremost among them is the thoughts of eternal love for the remnants of an Islamic dream, Omar, a land very important to me Fertile and tender revitalized with the water of young Arabs and their barbarian comrades one day this land that carries this divine scene that they did not familiarize themselves with in other parts of the world excluded that a land with these specifications can be a permanent reality in addition to this our urgent desire to reveal a page of Andalusian pages Which gave birth to poetic and prose texts in a very wonderful, uniqueness and creativity are still unknown in important aspects of which previous studies have not been able to excavate, so we may contribute to revealing the aesthetics represented by Andalusian personality as long as scholars and researchers admit their uniqueness Humanity first is distinguished by its prose, poetic and critical creativity, each separately. Secondly, it will be of interest to this study to explain a set of objective and technical phenomena. We will also strive to explore its habitats when we spread Ibn al-Shahid al-Andalusi.

The research consists of three axes preceded by a prelude in which we presented a historical and literary overview of the Andalusian presence in Spain. As for the first axis, it includes a study on the message of disciples and storms and the statement of Andalusian and oriental figures in it. The second axis included poetic opposition and the third axis, prose opposition, then a conclusion that includes the most prominent findings of the research. Fifth axis:

Cultural pluralism and heritage: the controversy of receptivity

Acculturation and the formation of the critical term in the Arab-Islamic heritage.

*The presence of Arabic literature in the mirror of the other: an example of Andalusian presence

التمهيد :

لمحة تاريخية وأدبية عن الحضور الأندلسي في مرآة الأدب العربي:

يستحوذ علينا الشعور بالتعجب حين نستقصي تلك الروابط والوشائج الوثيقة التي تربط بين الأدب العربي متمثلاً بالتراث المشرقي الإسلامي وبين الأدب الأندلسي كجزء منه. فأول هذه الروابط والوشائج التي تربط بين أدباء العربية في الأندلس وأدبائها في المشرق هي رابطة العقيدة والانتماء إلى الدين الإسلامي. وقد لا نبالغ إذا قلنا أن الأندلسيين بالغوا في الدين إلى درجة التقليد لأنهم كانوا يرون في المشرق المثال الذي يحتذون به.

أما الرابط الثاني : فيتمثل بالعروبة واللغة العربية ، وسبب ذلك هو حرص الملوك والأمراء العرب على اللغة العربية لأنها تمثل لغة كتابهم القرآن الكريم وسنتهم النبوية المطهرة.

لذلك وجدوا تشابها جغرافيا بين المشرق والأندلس "الأمر الذي دفعهم إلى تسمية أقاليم الأندلس بأسماء المناطق الشامية فتجدهم يطلقون لفظة حمص على أشبيلية"^١.

هذا وكانت الرحلة من بلاد المشرق إلى الأندلس وبالعكس هي المورد الذي يُغذي الثقافة الأندلسية والعنصر الفعال ، الذي أدى دورا مهما وبارزا في نقل الأدب العربي المشرقي بلغته العربية الفصيحة إلى الأندلس ، ورأينا كيف أن المقري صاحب كتاب نفح الطيب قد خصص الكثير من صفحاته "ليترجم لنا الوافدون من أدباء المشرق إلى بلاد المغرب أو من رحل من الأندلسيين إلى المشرق للحج أو للإطلاع على نتاج الأدباء المشاركة"^٢.

فقد كان المشرق مهد الثقافة الإسلامية "الشرق كان يبدع ثم يصدر إبداعه ونتاج ثقافته إلى الأندلس فيندفع أدباء الأندلس إلى تقليد ما وفد إليهم من أشعار شعراء المشرق وكتابات كتّابه"^٣. لذلك نجد غلبة الأنموذج المشرقي على الأديب الأندلسي وهذا مما أدى إلى الاعتقاد بان ابن شهيد لم يكتب رسالة التوابع والزوابع إلا متأثراً ببديع الزمان الهمذاني "قابن شهيد أخذ المقامة الابليسية لبديع الزمان الهمذاني ونماها وتوسع في خيالاتها وأضاف إليها وجعلها تخدم غرضه الخاص في كتابة قصته الطويلة"^٤. ولم يقف تأثر ابن شهيد عند هذا الحد في رسالته (التوابع والزوابع) بل انه كان متأثراً أيضا بمناظرة البديع والخوارزمي التي رواها بديع الزمان بقلمه وضمّن ديوان رسائله"^٥.

ومن القيم الراسخة في نفوس الأندلسيين ذلك التعلق بالوطن الأم - المشرق - والحنين إليه ، فالأندلسي مشدود بحنينه إلى المشرق رمز الماضي والأهل والأحباب وقد أدى ذلك إلى استعارة الأندلسيين للمصطلحات والكلمات العربية كما في قولهم "الرصافي ابن رومي الأندلس وأبن خفاجة صنوبري الأندلس وابن زيدون بحتري الأندلس وابن دراج متني الأندلس ... وحمة بنت زياد الشاعرة بأنها خنساء العرب"^٦.

فهذا هو عبد الرحمن الداخل يصف لنا حنينه وشوقه إلى المشرق عندما يخاطب نخلة رآها في بلاد الغرب فيبدأ بمخاطبة هذه النخلة التي هيجت حنينه وشوقه إلى بلاد المشرق فيقول:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تتاعت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى	وطول التتائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة	فممثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي ^٧

يقول ابن بسام في كتاب النخيرة : "إلا أن أهل هذه الأفق - الأندلس - أبوا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون في أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة حتى لو نطق بتلك الأفق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، بحثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما"^٨. "وهذا اعتراف صحيح من كبار مؤرخي الأدب الأندلسي باعتراف أهل الأندلس بتقليدهم للنتاج الأدبي المشرقي لا يبدو فيه سمة أندلسية خالصة"^٩.

وقد حدا ذلك بمؤرخي الأدب العربي إلى اعتبار الأندلسيين مقلدين للمشاركة في كل شيء لأسباب منها تسمية الأندلسيين لنوابغهم من الشعراء بألقاب المشاركة كما رأينا سابقا ، أو تسمية مدنهم بأسماء المدن المشرقية أو قد يكون هناك تشابه بين شاعر أندلسي وآخر مشرقي في طريقة النظم والصياغة والأفكار ، أو قد يعارض شاعر أندلسي شاعرا مشرقيا في النسج على منواله في موضوع واحد ووزن واحد وقافية واحدة.

وهذه الأسباب هي التي دفعت مؤرخو الأدب العربي إلى القول بتقليد أهل الأندلس لأهل المشرق وعدم وضوح الشخصية الأندلسية فيه وبالتالي نفي صفة الاستقلال عن المشرق وهذا لا ينطبق على الشعر فقط وإنما ينطبق أيضا على صنوه النثر وفنونه.

ويمكن للباحث في رموز الشخصية الأندلسية أن يلاحظ تنامي شعور الأديب الأندلسي بروابط اللغة والدين والحضارة والعروبة والثقافة التي تربطه بأصله المشرقي. فالمشرق موطن التأسيس والتأصيل ، والأندلس موطن الامتداد للكيان الأصلي وهو المشرق ، "فرغم المسافات الفاصلة بين المشرق والأندلس هناك جسور قوية ووشائج وثقى تصل بينهما ، ولا فرق إلا في الإبداع والطفرة والابتكار والخصوصية ، من ثمة لم يؤمن الأندلسيون قط بالسراقات الأدبية للمعاني والأفكار والصور والتراكيب وإنما آمنوا بالأشياء والنظائر"^{١٠}.

هذا "ويلتقي الأديب المشرقي في قدرته على تذوق مكامن الأدب وتحسس مواطن جماله وقد يتفق معه"^{١١}. فإذا تأملنا هذا التراث الأدبي العربي نجد أن الأديب الأندلسي لا يفرق بين ما هو مشرقى وبين ما هو أندلسي سوى أن الأول هو الأساس والأصل والآخر هو الامتداد والاستمرار لان ما هو تراث ماضٍ ملك للأديب الأندلسي بوصفه أصله وأساسه أما المباهاة والمفاخرة بالشخصية الأندلسية فلم تؤكد حضورها الثقافي وإشعاعها الفكري وعطائها الحضاري إلا في عصري الطوائف والمرابطين لان هذا العصر كان يمثل عصر ظهور جهايزة الشعراء وأعلام الكتاب فكان ابن شهيد يمثل رمزاً من رموز الشخصية الأندلسية التي أثبتت حضورها الأندلسي "والذي اتخذ المعارضة أساساً للتفوق"^{١٢}.

وخلال هذه الفترة نمت وتكاملت رؤيتهم للتراث العربي الإسلامي وعمقت فكرة العطاء المشترك بين أبناء الأمة الإسلامية ما داموا يتحدثون بلغة عربية واحدة سواء أكانوا من أصل عربي أو غير عربي "وما دامت تحكمهم خصائص اللغة والعقيدة والتراث المشتركة ، مثل هذا الارتباط بالمشرق المشحون بالعاطفة الجياشة والحب الدفين ، إنما هو ارتباط يحتضن بحبه إحساساً بالنقد والتميز عن المشرق"^{١٣}.

ومع حلول أواخر القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس للهجرة استطاع ابن شهيد تأكيد الذات الأندلسية وحضورها في مجالات الإبداع واعتزازه بشخصيته الأندلسية وإثبات حضورها من خلال خلق مدرسة أدبية أندلسية في محاولة لإثبات فضل أدباء الأندلس وإن الدافع من كتابة قصته

هذه "دافع شخصي نابع من إحساسه بأن معاصريه من الأدباء والنقاد لم يولوه حقه من التكریم ولم ينزلوه المنزلة الأدبية التي رأى نفسه أهلاً لها"^{١٤}.

فبدأت الشخصية الأندلسية إثبات حضورها شيئاً فشيئاً مما ساعدها على التحرر من أسر المشرق التقليدي نفسه ، إذ أقبل أدباء الأندلس على تقليد أدباء المشرق والنسج على منوالهم لكي يثبتوا تفوقهم عليهم في المعاني والأفكار والصور والتراكيب ونتيجة لذلك ظهرت هذه الثنائية في الأدب بين المشرق والأندلس. هذه الثنائية هي التي أدت إلى استقلال الشخصية الأندلسية وإثبات حضورها فظهرت المصنفات والمعارضات ، فبعد أن كرر الأندلسيون رحلاتهم إلى المشرق "فان ما ارتسم في خيالهم وما تطلعت إليه نفوسهم لم يكن في مستوى تطلعاتهم فانكفأوا على ذاتهم يستنطقونها ويستنكهنون قدراتهم ومهاراتهم ، وبدأوا يتدارسون ويؤلفون ويكتبون عن الأدباء والشعراء فظهرت المصنفات والمعارضات"^{١٥}.

كما نجد أن للبيئة الأندلسية وجمالها الأثر الأكبر في استقلال الشخصية الأندلسية عن المشرقية وهذا ما وجدنا أثره عند ابن شهيد ط فهو يؤمن بجمال الكلام ويعتقد بتأثيره في النفوس دون أن يكون للكلام في ذاته جمال خاص ، والمقصود عنده هو أن يتركب الحسن من غير الحسن ، وهذه نظرية طريفة في الجمال تُعد من ابتكارات ابن شهيد"^{١٦}.

وأخيراً نقول إن الأصل (المشرق) و الامتداد (الأندلس) كانا من بعضهما بمنزلة البداية من النهاية والعبرة الأكثر إشراقاً في تاريخ الحضارة الأندلسية هي دوام الحكم العربي لمدة ثمانية قرون تجمعهما روابط مشتركة في التاريخ والأصل واللغة والدين وغيرها.

المحور الأول:دراسة عن رسالة التوابع والزوابع وبيان الشخصيات الأندلسية والمشرقية فيها:

يُعرّف الأدباء والنقاد العرب عامة والأندلسيين خاصة رسالة (التوابع والزوابع) لابن شهيد الأندلسي بأنها عبارة عن قصة ، فحازم عبد الله خضر يُعرّفها "رسالة خيالية قصصية كتبها أبو عامر بن شهيد مصورا فيها رحلة قام بها إلى ارض الجن بصحبة جني اصطفاه اسمه زهير بن نمير"^{١٧}.

وهي "قصة رحلة خيالية إلى عالم الجن قام بها ابن شهيد مع تابع اسمه زهير بن نمير ولقي شياطين المشرق وكتابه ، وجرت بينه وبينهم مطارحات أدبية ومناقشات لغوية تجلت فيها آراء ابن شهيد النقدية وانتزع اعترافهم بتفوقه وجودة أدبه فضلا عن الفكاهات والطرف وروح الدعابة التي سرت في هذه الرسالة"^{١٨}.

أما مصطفى الشكعة فيُعرّفها بأنها "إحدى القصص البارة التي تعتبر في المقدمة من ألوان الأدب الإمتاعى الأندلسي بصفة خاصة ، والعربي بشكل عام"^{١٩}.

وعندما نريد استحضار الشخصيات الأندلسية والمشرقية في هذه الرسالة نجد ان ابن شهيد قد حصر نفسه في صور تراثية لهؤلاء الشعراء والكتاب ويتخذ من توابعهم من الجن وسيلة للالتقاء بهم فينتقل بالقارئ إلى زمن غير الزمن الذي هو فيه ، زمن باعد بينه وبين هؤلاء الأدباء في الواقع وعلى هذا كان محصورا بالفعل في استعادة ما دار بشأن هذه الشخصيات الأدبية. وابن شهيد في رسالته القصصية هذه يُمثل شخصية البطل في هذه القصة وهو الراوي لها وشاهدها لأنه مصدر القصة. ثم تأتي شخصية أخرى وهي شخصية زهير بن نمير يمكن إن نعتبرها ظلا أو مرآة عاكسة لشخصية ابن شهيد ترافقه أينما حل أو ارتحل في عالمه العجائبي وهو عالم الجن.

ثم تأتي شخصية الشيخ الثالثة وقد جاء بها ابن شهيد لتكون حلقة الوصل بين ابن شهيد ووادي عبقر الذي استأذنه زهير ابن نمير من أجل أن يلتقي بتابع امرؤ القيس في قوله : "تذاكرت يوما مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء وما كان يألّفهم من التوابع والزوابع وقلت : هل حيلة له في لقاء من اتفق منهم؟ قال: حتى استأذن شيخنا ، وطار عني ثم انصرف"^{٢٠}.

وهناك شخصية أخرى يمكن أن نعتبرها شخصية - المُرسَل إليه - تلك الشخصية ورد ذكرها في بداية رسالة (التوابع والزوابع) وهي شخصية (أبي بكر) فابن شهيد ابتداء قصته بهذه الشخصية بقوله : "لله أبا بكر"^{٢١}.

أما الشخصية الأخرى التي ورد ذكرها في رسالة التوابع والزوابع فهي شخصية (فاتك بن الصقعب) الذي قال عنه أحسان عباس : "وهنا تتفق قريحة ابن شهيد فيتخذ لنفسه تابعا آخر - عدا زهير - يسميه فاتك بن الصقعب"^{٢٢}. ينظم الشعر على لسانه ويُنطقه بالمفاهيم النقدية ويعرض عليه شعره.

وهناك شخصية أخرى ورد ذكرها في الرسالة هي شخصية (أبو قاسم الأفليلي) وهو من معاصري ابن شهيد فقد قال عنه فادي رشيد : "وأبرز معاصريه الذين حاول أن ينحى عليهم بالازدراء والتبكيث أبو القاسم الأفليلي"^{٢٣}.

ولم يكن لشخصية من شخصيات التوابع والزوابع تابعان أو أكثر غير (ابن شهيد) و (أبي القاسم الأفليلي) ، ف (زهير بن نمير) و(فاتك بن الصقعب) يتبعان ابن شهيد ، في حين يتبع (أبا القاسم) (أنف الناقة) و (الإوزة) و (فرعون بن الجون).

ومن الشخصيات الأخرى التي ظهرت في رسالة التوابع والزوابع ، توابع كبار الشعراء في المشرق وغرضه من ذلك كما أسلفنا غرض شخصي أراد ابن شهيد من وراء إثبات العراقة بالنسبة لشخصه ، كما انه أراد إثبات العراقة والإبداع للشخصية الأندلسية عامة وذلك باعتراف وشهادات عمالقة الكتاب والشعراء في المشرق.

وهناك سبب آخر يجب أن لا نغفل عنه نابع من إحساسه بان "معاصريه من الأدباء والنقاد لم يولوه حقه من التكريم ولم ينزلوه المنزلة الأدبية التي رأى نفسه أهلا لها ، ومن جملتهم أبو القاسم الأفليلي الأديب الشاعر الكاتب ، بل كانوا يكونون له الحقد ويكيلون له الكيد ومن ثم راح يلتمس التقدير والتكريم عند من هم أعلى قدراً من معاصريه"^{٢٤}.

ومن شخصيات الرسالة أيضا يبدأ ابن شهيد بتوابع الشعراء ، وهنا تبرز شخصية (عتيبة بن نوفل) صاحب (امرؤ القيس) عبر الحوار الذي دار بينه وبين زهير كما في قوله : "قال: فمن تريد

منهم؟ قلت: صاحب أمريء القيس. فأمال العنان إلى واد من الأودية ذي دوح تتكسر أشجاره ،
وتترحم أطياره فصاح يا عتيبة بن نوفل ، بسقط اللوى فحومل^{٢٥}.

من هذا الحوار يبين ابن شهيد وتابعه زهير ينادي صاحب أمريء القيس باسمه ذاكرة
الأمكان التي ذكرها امرؤ القيس في معلقته المشهورة وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تواصل
ابن شهيد مع هذا التراث العريق الذي صور لنا حياة هذا الشاعر الجاهلي أيام الترف والرخاء في دارة
جلجل ، وأيام البؤس والشقاء على زوال ملك كندة.

فيصور لنا ابن شهيد صاحب أمريء القيس بقوله : "فارس على فرس شقراء كأنها
تلتهب"^{٢٦}.

(وعنتر بن العجلان) صاحب (طرفة) "راكب جميل الوجه قد توشح بالسيف واشتمل عليه
كساء خز ، وبيده خطي"^{٢٧}.

وكذلك (أبو الخطار) صاحب (قيس بن الخطيم) الذي يلتقي به الكاتب صدفة ، أما (طوق
بن مالك) المكنى بـ (أبي الطبع) وهو تابع (البحثري) فهو "فتى على فرس أشعل وبيده قناة"^{٢٨}.
ولا يختلف (حارثة بن المغلس) صاحب (أبي الطيب) عن هؤلاء جميعا إذ يبدو لنا "صاحب
قنص ... فارسا على فرس بيضاء كأنه قضيب على كثيب ، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه وعلى
رأسه عمامة حمراء"^{٢٩}.

إن نجد أن هذه الشخصيات تنتمي إلى عالم الخيال الذي شاده الكاتب ، فقد أضفى على
شخصياته مجموعة من الصفات تجعلهم أكثر وضوحا وقربا من تصورات القارئ الذهنية.
وإذا انتقلنا إلى شخصيات الشعراء المحدثين وجدنا أوصافهم تختلف (مغتاب بن حبناء)
صاحب (أبي تمام) "فتى كفلقة القمر"^{٣٠}.

أما (حسين الدنان) تابع (أبي نواس) فهو "شيخ طويل الوجه والسيلة ، قد افترس اضيعات
زهر ن وانكأ على زق خمر"^{٣١}.

أما عند النقاء ابن شهيد بتوابع الكتاب نجده يضيف على شخوص رسالته صفات تختلف
عن صفات الشعراء ، فهذا تابع (الجاحظ) (عتبة بن أرقم) وكنيته (أبو عينية) "شيخ أصلع ، جاحظ
العين اليمنى ، على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة"^{٣٢}.

أما صاحب (الأفيلي) الملقب بـ(أنف الناقة بن معمر) فيقول عنه ابن شهيد: "جني أشمط
ربعة ، وارم الأنف يتطالع في مشيته كاسر لطفه وزاوياً لأنفه"^{٣٣}.

أما تابع (عبد الحميد الكاتب) فلا نجده يحدد له صفاتاً معينة وكذلك بالنسبة إلى (زبدة الحقب) صاحب (الهمداني) و(أبي الآداب) صاحب (أبي اسحق بن حمام) و(فاتك بن الصقعب) و (شمرول السحابي) و (فرعون بن الجون)^{٣٤}.

والشخصيات الأخرى التي كان لها حضور في الرسالة هي حيوان الجن فيبغلة ابن عيسى "شهباء عليها جلّها وبرقعها"^{٣٥}.

أما أم خفيف الإوزة الأدبية فهي "بيضاء ، شهلاء في مثل جثمان النعامة كأنما درّ عليها الكافور ولبست غلالة من الحرير"^{٣٦}.

هذه هي أبرز الشخصيات التي ذكرها ابن شهيد والتي مثل فيها دور البطل في مسرحية وقصة ابن شهيد العجائبية فتجد أن هذه الصفات والملاح التي أضفاها على هذه الشخصيات توافق ما نُسج حولهم من أخبار وكذلك تمثل ثقافة ابن شهيد ومقدرته الأدبية ولو أن تعرض ابن شهيد للشخصيات الأندلسية كان قليلا نوعا ما إذا ما قيس بتعرضه للشخصيات الأخرى لأنه كما قلنا يهدف إلى انتزاع اعترافات المشاركة أولا ، ولأنه من ناحية أخرى كان على خصومة مع كثير من الأندلسيين لذلك فان تناوله للشخصيات الأندلسية كالأقليلي جاء بهدف السخرية والاستهزاء والفكاهة أكثر مما جاء بهدف التعريف بصورة النقد في الأندلس.

المحور الثاني : المعارضات الشعرية

مدخل إلى موضوعات المعارضات:

يرى النقاد ودارسو الأدب أن مصطلح المعارضات يشير إلى فن قائم بذاته انتشر في فترات مختلفة في العصور الأدبية وكان مجالا للتنافس بين الشعراء والكتاب لإظهار قدراتهم الإبداعية في محاكاة بعض القصائد المشهورة أو الرسائل أو المقامات المشهورة التي انتشرت بين الناس بسبب جودتها وتميزها. والمعنى اللغوي لكلمة المعارضة لا يحمل تخصيصا بشعر أو نثر بل يعني بشكل عام المحاكاة أو المجارة.

وعملنا في هذا المحور والمحور الذي يليه : البحث عما في أدب ابن شهيد وتحديد رسالته (التوابع والزوابع) من معارضات شعرية ونثرية وسنكتفي بذكر مثال واحد لكل منهما.

هذا وتعد المعارضات من الموضوعات التي واكبت الأدب العربي وظهرت عند أدباء الأندلس شعراءً وكتاباً. وقد نالت شهرة واسعة حتى كادت إن تكون سمة العصر وقد ذاع صيتها واشتهر في عصور الأدب الأندلسي. فالشاعر أو الكاتب الذي يريد أن يظهر نجمه على الساحة الأدبية عليه أن يعارض كبار الشعراء في شعره كي يبلغ منزلة الشعراء الذين سبقوه.

المعارضة لغة واصطلاحاً:

المعارضة : هي "المقابلة ، فيقال فلان يعارضني أي يباريني ، وعارضته في السبيل إذا سرت حiale وحاذيته ، وعارض الشيء بالشيء معارضةً قابلتُ وعارضتُ كتابي بكتابه أي قابلته"^{٣٧}.

أما في الاصطلاح : فيقول أحمد الشايب : "المعارضة في الشعر أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما من أي بحر أو قافية فيأتي شاعر آخر فيعجب بهذه القصيدة بجانبها الفني وصياغتها الممتازة فيقول قصيدة في بحر الأولى وقافيتها وفي موضوعها مع انحراف يسير أو كثير حرصاً على أن يتعلق بالأول ودرجته الفنية ويفوقه فيأتي بمعانٍ أو صورٍ بإزاء الأولى"^{٣٨}.

ولنبداً الآن بالمعارضات الشعرية:

يُعد امرؤ القيس من أوائل الشعراء الجاهليين الذين عارضهم ابن شهيد الأندلسي في رسالته إذ يقول :

وحلت سليمى بطن ظبي فعرعرا

سما لك شوق بعدما كان أقصر

مجاورة غسان والحي يعمر

كنائيةً باتت وفي الصدر ودّها

لدى جانب الافلاج من جنب تيمرا^{٣٩}

بعيني ظعن الحي لما تحملوا

الشاعر هنا يخاطب نفسه فيقول : سما شوقك أي ارتفع وذهب بك كل مذهب لبعيد المحبوبة

عنه بعدما كان أقصر عنك الشوق لقرب المحبوبة ودنوها منه.

استهل الشاعر قصيدته بمخاطبة نفسه التي ألم بها الشوق وأحاط بها الحزن وذهب بها كل

مذهب ، حيث وصل إلى ذروته لبعيد سلمى عنه بعد أن رحلت بعيداً عنه ، فبدأ الحوار بالفعل (سما)

ويبدو لأول وهلة إن هذا الكلام موجه إلى شخص آخر مخاطب جاهل بالأمر ، لكن بعد التأمل

يتضح أن لا وجود للآخر. إن من يخاطبه هو ذات الشاعر وهذا ما شاع في الشعر العربي القديم

وهي طريقة يلجأ إليها الشاعر لتشويق المتلقي وإيهامه ، أما إذا انتقلنا إلى قصيدة ابن شهيد الأندلسي التي أنشدها معارضة لقصيدة أمريء القيس فنجده يقول :

شجته مغانٍ من سُليمى وادرُ

تزل بها ريح الصبا فتحدّر

ومن قبة لا يدرك الطرف رأسها

وقد جعلت أواجه تتكسر^{٤٠}

تكلفتها والليل قد جاش بحرهِ

عندما نتأمل القصيدة نجد الشاعر افتتحها بمقدمة غزلية تقليدية حيث نجده يحتفظ بكل مظاهر حبه وشوقه سرا في صدره ، ويذكر هنا آلامه مع العشق والمعشوقة وعن وضعه وعن العذاب الذي يشعر به دون أن يعلم الناس عنه.
الموازنة بين النصين:

لقد تحقق من هاتين القصيدتين شروط المعارضة. فعندما نتأمل قصيدة ابن شهيد يتبين لنا أنه نظم قصيدته وفق وزن وقافية امرئ القيس بالإضافة إلى ذلك نجده قد تطرق إلى نفس المعاني الجزلة والأفكار والأحاسيس كما هو موضح في النقاط الآتية:

١. الاتفاق في الوزن : لقد اختار كل منهما (المعارض والمعارض) أن تكون موسيقاه على البحر الطويل.
٢. الاتفاق في القافية : كل قصيدة من القصيدتين رائية ، أي الحرف الذي ينهي كل واحدٍ منهما قصيدته به هو حرف الراء.
٣. الاتفاق في الغرض : احتوت قصيدة المعارض والمعارض على غرض الوصف وهو شرط ثالث من شروط المعارضة.
٤. البناء : لقد سلك الشاعران في افتتاح قصيدتيهما بمقدمة جرى عليها شعراء العرب القدامى فكلاهما يتغزل بسلمى وجعلا حديثهما على شكل الحوار.
٥. التوافق في قوافي المفردات.
٦. الأفكار والمعاني : اتفقت القصيدتان في الأفكار والمعاني حيث كانت معظم الأفكار والمعاني في القصيدتين تتضمن غرض الوصف فكل من الشاعرين يبين مدى اشتياقه إلى محبوبه فهو يحبه

حبا جماً ، ويطلب دائماً طريقة الوصول إليه والتقرب منه فهو دائماً يسعى لتحقيق هذه الأمنية ، وإن كان هناك عائق يعوق بينه وبين نيل مراده.

المحور الثالث : المعارضات النثرية

حقق النثر الفني الأندلسي في القرنين الخامس والسادس الهجريين قفزة واسعة في مجال التطور والنضج فراح الكتاب يلتجئون إلى المعارضة للبحث عن صيغ فنية جديدة وسط عوامل متعددة تضافرت فيما بينها أدت إلى أن تكون تلك المعارضات سمةً فريدةً في الأندلس لنثر تلك الحقبة من تاريخ الأندلس.

وقد عدها ابن شهيد سمةً من سمات تفوق الأديب وقد اتخذها أداةً "يلتمس بها التقدير والتكريم عند من هم أعلى قدراً من معاصريه وأوفى شهرةً ، وأعلى كعباً في الأدب بفرعيه الشعر والنثر" ^{٤١}.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على إن ابن شهيد كان له الأثر الكبير في شيوع ظاهرة المعارضات في الأدب الأندلسي لأنه يعد واحداً من النقاد الذين تركوا بصمة واضحة في نقد القرن الخامس الهجري.

والمعارضة النثرية التي وجدناها في رسالة ابن شهيد نجدها تتمثل في معارضة أعلام النثر المشرقي كبديع الزمان الهمذاني والمعري والجاحظ وغيرهم. وقد تصل المعارضة في النثر إلى حد المحاكاة أو المماثلة الناضجة فراحوا يعارضون بعض نماذج معارضة تنكئ وتستند على عنصري : المماثلة والمقابلة.

هذا وقد اتخذ ابن شهيد من المعارضة وسيلة لإقحام خصومه والنيل منهم خاصة أولئك الذين اتهموه بالسرقة والأخذ من أشعار القدماء وكتاباتهم النثرية "وانتزع الإجازة منهم طوعاً أو كرهاً" ^{٤٢}.

فقد عارض بديع الزمان الهمذاني في بعض رسائله الوصفية التي تناول فيها "وصف الماء والبرغوث والثعلب والحلوى" ^{٤٣}.

فعندما نتأمل أسلوب ابن شهيد وأسلوب بديع الزمان الهمذاني نجد أن كلا من كلتا الرسالتين موعلة في السجع والغلو في السخرية والإلحاح في الشماتة والاتكاء على الشعر تعميقاً لإحساس أو انتصاراً لفكرة.

ف (زبدة الحقب) صاحب (بديع الزمان) كان لابن شهيد مصارعاً. ويبدو للباحث أن لإبراز (ابن شهيد) مخالفته لـ (بديع الزمان) غابيتين:

طالب الأفليلي بإنشاء رسائل جديدة فيها إبداع لم يسبقه إلى مثلها أحد كرسائل ابن شهيد وأشعاره التي رواها باعتراف صاحب بديع الزمان ، فهو متفوق على أستاذه حتى أنه لا يكلمه بعد قراءة رسالة (الماء) إذ يقول ابن شهيد: "فلما انتهيت في الصفة ، ضرب زبدة الحقب الأرض برجله ، فانفجرت له عن مثل برهوت ، وتدهدى إليها واجتمعت عليه وغابت عينه"^{٤٤}.

وهكذا وجدنا توابع الشعراء والكتّاب بين مجيز لابن شهيد أو منهزم أمامه أو موافق له أو مهان فهو قد حصل على إجازة كبار الشعراء والكتّاب في كل الأحوال وهذا ما كان مقصده من الرسالة.

الخاتمة ونتائج البحث :

وبذلك تنتهي قصة ابن شهيد ورسالته الموسومة (التوابع والزوابع) عن أهداف جليلة وواضحة تتمثل فيما يأتي:

١. إثبات البراعة لذاته عن طريق نيل الإجازة من توابع كبار الشعراء والكتّاب في المشرق. إن هذه الإجازة تدل على إعجاب ابن شهيد بنفسه. وتأكيدها لصلة أدب المشرق بأدب الأندلس وتطلعه إلى أن يكون ذا رياستين (رياسة الشعر والنثر).
٢. كما تأتي هذه القصة عريضة الأصل ، عريضة الشكل ، والمضمون لاستناد فكرتها الى فكرة جاهلية قديمة وهي: إن لكل شاعر شيطان يلهمه قول الشعر وكذلك تأثر ابن شهيد بحادثة الإسراء والمعراج في نسج أحداثها.
٣. لم يكتفِ ابن شهيد بمثال واحد للأخذ من المتنبي بل مثل بأربعة نماذج وأنشد تابعه شعراً له ولأفراد عائلته وغرضه من ذلك أنه أراد أن يثبت لنا أنه شبيه بالمتنبي الذي هو شاعر المشرق

- دون منازع ، كذلك فان أبا عامر شاعر الأندلس بلا منازع ، ففي هذه المعارضة الشعرية أراد ابن شهيد إثبات تفوقه الأدبي شعرا ونثراً.
- ٤ . من خلال النصوص التي حللتها الباحثة نجد اتفاق القصيدتين المعارضة والمعارضة في الوزن الشعري وحرف الروي والقافية مع الإشارة إلى القصيدة المعارضة من بدء القصيدة المعارضة، وقد يتفق موضوعا القصيدة وقد يختلفان.
- ٥ . المعارضات كانت في الشعر والنثر وما ذلك إلا لإعجاب الأندلسيين بأدب المشرق وتأثرهم به. كأنهم كانوا يجدون فيه الوطن الأم الذي نزحوا منه وهم فرع من هذه الشجرة ومعروف أن الفرع يعود إلى الأصل.

المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم

١. الأدب الأندلسي - موضوعاته وفنونه - د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ط٢ ، ٢٠٠٨.
٢. الأدب العربي في الأندلس ، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٦.
٣. ابن شهيد الأندلسي - حياته وأدبه - د. حازم عبد الله خضر ، دار الشؤون الثقافية والنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، العراق ، ١٩٨٤ ، د.ط.
٤. البخلاء للجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨.
٥. بديع الزمان الهمذاني ، باني عميري ، المؤسسة العالمية للنشر والتوزيع ، د.ت.
٦. البديع في وصف الربيع ، لأبي الوليد الحيري ، دار المنني ، جدة ، السعودية ، ط١ ، ١٩٨٧.
٧. البيان المغرب ، لابن عذارى المراكشي ، ج٢ ، ت.ج. كولت وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، تحقيق احسان عباس ، ١٩٦٤.
٨. تاريخ آداب العرب ، الرافعي ، ج٢ ، اخراج محمد العريان ، مطبعة الاستقامة ، ط١ ، ١٩٤٠.
٩. تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، احسان عباس ، دار الشروق للتوزيع والنشر ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٧.
١٠. تاريخ النقائض في الشعر العربي القديم، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٤.

١١. تاريخ النقد الأدبي عن العرب (نقد الشعر في القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، احسان عباس ، دار الشروق ، ط٢ ، ١٩٩٣.
١٢. تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، مصطفى عليان ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٩٨٤.
١٣. ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، ١٩٨٤ ، ط٤.
١٤. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسم الشنتريني ، تحقيق احسان عباس ، ق١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دت.
١٥. رسالة التوابع والزوابع ، ابن شهيد الأندلسي ، تحقيق بطرس البستاني ، مكتبة صادر ، بيروت.
١٦. الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، بيري هنري ، ترجمة د. الطاهر احمد مكي ، دار المعارف ، مصر ، ط١ ، ١٩٨٨.
١٧. الفكاهة في الأدب الأندلسي ، د. رياض قزح ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨.
١٨. فنية التعبير في شعر ابن زيدون ، عباس الجراري ، ١٩٧٧ ، د.ط.
١٩. لسان العرب ، ابن منظور ، تحقيق جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري ، ج١١ ، ط٤ ، طبعة مصورة عن مطبعة بولاق ، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٢٠. النثر الأندلسي في عصر الخلافة ، محاضرة القاها د. عيسى سلمان المعموري على طلبة المرحلة الثالثة كلية الدراسات القرآنية في قسم لغة القرآن ، جامعة بابل.
٢١. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المقري ، تحقيق احسان عباس ، م١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨.

الهوامش :

١. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المقري ، تحقيق احسان عباس ، م١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص٢٣٧.
٢. م.ن. م٢ : ١٢٩ ، م٣ : ٥٠.
٣. الفكاهة في الأدب الأندلسي ، د. رياض قزح ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨ ، ص٣٥.
٤. الأدب الأندلسي - موضوعاته وفنونه - د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ط١٢ ، ٢٠٠٨ ، ص٦٨١.

٥. ينظر : بديع الزمان الهمذاني ، ص ١٨٧-٢٠٨.
٦. تاريخ آداب العرب ، الرافعي ، ج ٢ ، اخراج محمد العريان ، مطبعة الاستقامة ، ط ١ ، ١٩٤٠ ، ص ٢٦٢.
٧. انظر هذه الأبيات في البيان المغرب ، لابن عذاري المراكشي ، ج ٢ ، ت.ج. كولت وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، تحقيق احسان عباس ، ١٩٦٤ ، ص ٩٠.
٨. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني ، تحقيق احسان عباس ، ق ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دت ، ص ٢٣.
٩. ينظر الأدب العربي في الأندلس ، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٦ ، ص ١٥٩.
١٠. تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، مصطفى عليان ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٤٢٩.
١١. ينظر البخلاء للجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٤٠.
١٢. رسالة التواضع والزواجع ، ابن شهيد الأندلسي ، تحقيق بطرس البستاني ، مكتبة صادر ، بيروت ، ص ١٩١.
١٣. ينظر فنية التعبير في شعر ابن زيدون ، عباس الجارري ، ١٩٧٧ ، د.ط ، ص ٧٤.
١٤. الألب الأندلسي - موضوعاته وفنونه - د. مصطفى الشكعة ، ص ٦٤١.
١٥. البديع في وصف الربيع ، لأبي الوليد الحيري ، ص ١١٢.
١٦. تاريخ النقد الأدبي عن العرب (نقد الشعر في القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري) ، احسان عباس ، دار الشروق ، ط ٢ ، ١٩٩٣ ، ص ٢٨٦.
١٧. ابن شهيد الأندلسي - حياته وأدبه - د. حازم عبد الله خضر ، دار الشؤون الثقافية والنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، العراق ، ١٩٨٤ ، د.ط ، ص ٢٠٧.
١٨. الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، بيري هنري ، ترجمة د. الطاهر احمد مكي ، دار المعارف ، مصر ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ص ٩٦.
١٩. الألب الأندلسي ، موضوعاته وفنونه ، ص ٦٧٨.
٢٠. التواضع والزواجع ، ص ١٢٢.
٢١. م.ن : ص ١١٧.
٢٢. تاريخ الألب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - احسان عباس ، ص ٣٠٧.
٢٣. النثر الأندلسي في عصر الخلافة الأموية ، ص ١٦٨.
٢٤. الألب الأندلسي - موضوعاته وفنونه - ، ص ٦٤١-٦٤٢.

٢٥. التوابع والزوابع ، ص ١٢٢-١٢٣.
٢٦. م.ن ، ص ١٢٥.
٢٧. م.ن ، ص ١٣٥-١٣٨.
٢٨. م.ن ، ص ٩٢.
٢٩. م.ن والصفحة.
٣٠. م.ن ، ص ١٠٢.
٣١. م.ن ، ص ١١١-١١٢.
٣٢. م.ن ، ص ٩٨.
٣٣. م.ن ، ص ١٠٥.
٣٤. م.ن ، ص ١١٥.
٣٥. م.ن ، ص ١٢٤.
٣٦. م.ن ، ص ١٤٦.
٣٧. م.ن ، ص ١٤٨.
٣٨. م.ن ، ص ١٤٨-١٥٠.
٣٩. لسان العرب : مادة عرض.
٤٠. تاريخ النقائض في الشعر العربي القديم ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٤ ، ص ٧.
٤١. ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، ١٩٨٤ ، ط ٤ ، ص ٤١.
٤٢. الأديب الأندلسي - موضوعاته وفنونه - ، ص ٦٤١-٦٤٢.
٤٣. التوابع والزوابع ، ص ٢٠٠.
٤٤. التوابع والزوابع ، ص ١٧٤.